أدبنا الثوري والموقف الحضاري

بقلم سلمى الخضراء الجيوسي

١ ـ الاديب الثوري والتراث العربي

الاديب الذي لا تراث له اديب ضائع ، فالادب والفن يتسلسلان في الامم حاملين خصائصهما الاصيلة المتميزة والتي تسند اي نتاج تجيء به اجيال من الخلاقين . في تسلسلهما عبر العصور يتطعمان بالروافد الجديدة ، بنكهات آداب وفنون التقياها ، وبطابع العبقريات الادبية المتلاحقة التي تتولى الادب عصرا بعد عصر . ولكن الخصائص الاصيلة التي تميز ادب امة وفنها وروحيتها تلازم كل نتاج جديد مبدع .

اما الدعوة الى التشبث باصالتنا ، فهي من حيث جوهرها ومعناها المباشر ، دعوة صحيحة ـ غير انها ما زالت دعوة مبهمة تحمل معها مزالق كثيرة حتى لاصحابها ، اذ ان علينا اولا ان نقرر ما هي خصائص هذه الاصالة وما هي معالمها البارزة ليكون لدعوتنا قيمة وفائدة ـ ولكي نستطيع ان نقرر هذا فانه من البديهي ان نكون ملمين ، الماما دقيقا ، بالتحول الذي جرى في شخصيتنا وحياتنا ، حتى نتمكن من التقرير فيما اذا كان اي ادب عربي معاصر معبرا عن الشخصية العربية الجديدة وعن الحياة العربية المستحدثة ، ام دخيلا عليها . وانه ليس صعبا ان نجد من بين اولئك الذين ينبرون لنقد ادبنا وحياتنا من يحاول ان يؤطر معالم الشخصية العربية المعاصرة ضمن اطر يمليها عليه اتجاه عقائدي وعاطفي ، فيقرر لها سلفا معالمها واوصافها دون تمحيص وتعمق ويحكم على الادب وعلى اصالته بناء على هذه التأطيرات القسرية .

وهناك ناحية ثانية ، اعتبرها انا ، من وجهة نظر فنية ، شديدة القيمة: هي ان الابداع يحمل اصالته معه . فليس هناك ابداع مصطنع ، او مزيف او دخيل . فالدعوة اذا الى التشبث بالاصالة انما هي دعوة موجهة الى غير المبدعين ـ غير انها على كل حال ضرورية ، اذ انها تستطيع ، اذا عرفت كيف تفصح عن نفسها بوضوح وحكمة ، ان تهدي اولئك الذين حملوا بذرة الابداع ولكن لم يعرفوا كيف يشقون لها منفذا سريعا خلال اشكالات الضياع الثقافي والفني التي يقعون فيها . انهم معرضون للوقوع في هذه الاشكالات بحكم جدتهم في ميدان الثقافة الحديثة (١)، ولهفتهم ، وحيرتهم، وضعف التراث المباشر الذي يربطهم بتراثهم القديم . وعندنا امثلة رائعة على شعراء او كتاب عرب معاصرين صرفوا في التيه سنوات من حياتهم الادبية ، الى ان وجدوا انفسهم وانطلقوا الى آفاق الابداع .

ان يقظتنا على حاضر ضحل في مطلع هذا القرن ، قد اوجد عندنا الشعور بالصغار امام روائع تراثنا القديم . لقد كان التراث وما زال يعني عند الكثيرين قيمة مقدسة ، لا من حيث روعتها وقيمتها الفنية فقط ، بل من حيث كونها المثل الذي لا يضاهي للابداع الفني ـ حتى اننا نجد عددا كبيرا من الشعراء والمهتمين بالادب يعتبرون بناء القصيدة القديم الشكل الوحيد الممكن للقصيدة العربية . وقد فاتهم امران : الاول هو ان القيمة الابداعية لاي عمل أدبي في اي عصر لا تزيد على غيرها في اي عصر اخر ـ فذروات الابداع متكافئة في تاريخ الفن ـ وروائع الماضي لن تفوق روائع هذا العصر ، او روائع المستقبل ـ وكذلك لن تفوق روائع الحاضر والمستقبل روائع الماضي قيمة وجمالا . ان ادبنا اليوم وادبنا المستقبل سيكون اكثر تعقيدا بالنسبة لتعقيد حياتنا وتجمع التجارب الانسانية والفنية عبر التاريخ ، وسوف يختلف اسلوبا ، ما في ذلك من شك ، فلكل عصر طابعه . اما من حيث القيمة الفنية ، فان العصور الحضارية جميعها قد انتجت آدابا رفيعة لا ارى ان مفاضلتها ممكنة .

اما الامر الثاني: فقد فات هذه الفئة التي تعطي الافضلية للماضي ان الابداع يجب ان يكون معبرا عن روح العصر متفاعلا بها ـ وان كل عصر يبدع اسلوبه الخاص . ولعل هذه الجماعة من الادباء لا تنكر على النثر ان يعكس روح العصر في اسلوبه ـ فاذا جئنا الى الشعر قامت الدنيا وقعدت ازاء اي تغيير في الشكل ـ وفي هذا تناقض وتجاهل لحقيقة تطور الشعر في الامم .

وهنا لا بد من التنبيه الى هذا الشطط البالغ في نظرة الاغلبية عندنا الى اللغة والشعر العربي . ان لكل من اللغة والشعر عند الامة ميزاتهما الوطنية الخاصة ـ ولكن هناك قواعد تطورية عامة يسيران عليها ـ فكما ان البشر يختلفون في ميزاتهم الفردية والشعبية ويتفقون في الخصائص العامة ـ فان اللغة والادب اللذين ينبعان من الانسان ويعتمدان عليه في تطورهما يتفقان مع لغات العالم في سنة التطور . وان من المضحك ان نستمر في الاصرار على ان اللغة العربية تنفرد بعدم الخضوع لسنة التطور العامة للغات وان الشعر العربي يتفرد بميزة البقاء السرمدي على شكله القديم والمحافظة في نفس الوقت على استمرار الابداع .

وفي المقابلة التي يجريها عدد من الكتاب بين ادبنا المعاصر وادبنا الموروث نجد ان بعضهم يصل الى حد الاستنكار اذ يلمس التغيير الكبير الذي طرأ على الادب العربي في العشرين سنة الاخيرة . ولم يفت عددا

---

(١) لعل من اهم ميزات الثقافة Culture هي انها تحتاج ، لكي تكون متمكنة في الاجيال والافراد ، الى عراقة موروثة من جيل الى جيل ، الى ما يمكن تسميته « بالاختمار الثقافي » .

منهم ان يحسب بعض هذه التغيرات بدعا لا تحمل شيئا من اصالة الماضي وقوته و« كماله ». غير ان هناك حقيقتين معروفتين لا بد من تسليط الاضواء عليهما من زوايا جديدة اذا اردنا ان نقف على قوة الصراع الذي واجهه ادباء هذا الجيل وعلى قيمة المآثر التي حققوها .

١ ـ الابتداء من نقطة الصفر : فالحقيقة الاولى هي ان ادبنا القديم يفتقر الى فروع اساسية كالقصة (بمعناها المعاصر) وكالمسرح والملاحم الشعرية (١) ، والاديب مضطر الى الاستعانة المباشرة بالادب الغربي الذي وصل الى نضجه واصبح له تكنيكه وفنونه وقوانينه ومفاهيمه . غير ان الاديب العربي مهما درس التكنيك الغربي ووعاه فسيبقى عنده، على الغالب ، ناحية ضعف لا مجال لقهرها : وهي ان الانسان مهما عب من تراث حضارة اخرى ومهما تمثل هذه الحضارة ، فان عطاءه الادبي يجب ان يستمد جذوره المباشرة من تراثه هو ومن حضارته ، فاذا لم يكن عندنا قصص فني ممتاز في الماضي فان محاولة تلافي هذا النقص ستكون شاقة جدا على الاديب الذي يبتدىء من نقطة الصفر . ان الابداع الادبي ، يتم على احسنه ، عن طريق تمثلنا لما ابدع عن حياتنا بلغتنا ، اي للروائع التي تحدرت مباشرة من تراثنا ، غير ان هذا لا يمنع ان يتأثر الاديب تأثرا مباشرا ايضا بما ابدع في آداب لغات اخرى ـ ولكنه ، على الغالب ، يظل مفتقرا الى طابع الاصالة الكاملة اذا كان تراثه خاليا من الفرع الادبي الذي يكتب فيه واضطر الى الاستعانة فقط باداب لغات اخرى .

هذه قاعدة اجمالية وان كنا نردف فنقول بان العبقرية طالما حملت للعالم مفاجآت تخترق السنن والقواعد وتتحداها .

٢ ـ عهد ركود طويل : اما الحقيقة الثانية فتتعلق بتطور ادبنا . ففي دراستنا لتاريخه تواجهنا حالة فريدة وهي ان ادبنا توقف عن التطور وتجمد مدة تجاوزت اربعة قرون طويلة . كان الادب العربي مزدهرا من الجاهلية حتى ما بعد انكسار شوكة العرب بزمن ـ ولعل عددا من ارقى مؤلفاتنا لم يوضع الا بعد ان بدأت الامبراطورية العربية تتمزق ، والا بعد ان اصبحت الحياة العربية على شيء كثير من عدم الاستقرار والقلق ـ وذلك لان تأثر الثقافة والادب بالحضارة يحتاج الى اجيال كثيرة من الاختمار ويستمر بعد زوال عنفوان هذه الحضارة بمدة . ولو زالت حضارة اوربا المادية والعلمية دفعة واحدة اليوم مثلا فانني لا اشك في ان العطاء الادبي والفني سيستمر بعد زوال اسباب الحضارة المادية.

بعد ان مضت على العرب اجيال من الاستعباد عقب انحلال الخلافة العربية نهائيا ، واستطاع الاتراك ان يسيطروا على البلاد العربية سيطرة سياسية وفكرية تامة ، وقع العرب فيما يشبه الذهول وبدأت الشخصية العربية تنحل وتركد . وان ركود الشخصية وجمودها لاخطر شيء على الادب والفن ان في حياة الافراد الموهوبين وجمودها لاخطر شيء على الادب والفن ان في حياة الافراد الموهوبين انفسهم او في حياة الامم . ومضت القرون والنتاج الادبي الهزيل غارق في تفاهاته وغثاثاته ، فلما تسلمناه نحن في هذا العصر رفضنا ، بصورة حاسمة ، كل هذا الادب التافه الذي انتجته الشخصية العربية الجامدة في عصور الانحطاط ، ودفناه بايدينا ، وتناولنا ادبنا القديم سالما كما كان في عصور ابداعه ورحنا نبني عليه . غير ان الهوة الطويلة الفاصلة بيننا وبينه والتي قطعت حبل استمراره في العطاء ، وقفت تمثل لنا مشكلا شائكا ينطوي على الكثير من التحدي . فهل كان ممكنا ان يأخذ الادب طرف الحبل المقطوع ويسلم نفسه ببساطة الى عملية تطور طبيعي متجاهلا عهد الجليد الطويل بين الادبين ؟ هل كان ممكنا ان تستأنف الشخصية العربية عملها الادبي وكأن شيئا لم يحدث خلال هذه القرون الطويلة وبغيرها وكأن الحياة الجديدة لم تتفتح على مشكلات ومواقف لم تألفها الحياة القديمة ولم تعرفها ؟

وفي بداءة النهضة اضطر اديبنا ، في محاولاته اللاهفة لاستعادة الاصالة القديمة في اللغة والتعبير ، ان يضغط شخصيته المبلبلة باطار الشخصية القديمة وان يتناول التعبير القديم جاهزا ويتقمص العواطف ووجهات النظر التي كان يعبر عنها الادب القديم لانه لم يكن قد وجد نفسه بعد.

كان الاديب العربي يترعرع في هذا القرن مع السنين وهو يبحث عن امرين ـ العودة الى الاصالة القديمة ، وهذا كان منه بحثا واعيا افاد الكثيرين ولكنه اوقع الكثيرين في التقليد والاتباعية واوجد عندنا بالنهاية جيلا من الرجعيين ، ثم التعبير عن الاصالة الفردية ، عن الشخصية المعاصرة ، هذا كان منه الى عشر سنين ونيف خلت ، بحثا لا واعيا اوقع البعض في بلبلات الضياع بين الاديب الغربي والعربي واوجد في جيلنا جماعات من المقلدين والزائفين .

ولم تستطع فروع الادب جميعها ان تتطور وتتقدم بنفس السرعة ، فقد سبق النثر الشعر بمراحل ، واستطاع خلال فترة وجيزة ان يلحق، من الناحية التعبيرية والاسلوب ، ببساطة النثر العالمي ومرونته في هذا العصر ـ وان كان لاقى من الناحية اللغوية ، اي من ناحية المفردات مصاعب عديدة لم يتغلب عليها جميعها حتى اليوم. اما الشعر فقد كان تطوره اقسى على اصحابه ، فانهم حملوا عدوى القوانين التي فرضها النقد القديم على الشعراء ، كما وان الشعر لم يكن مدعوا كما كان النثر لتلبية حاجات التعبير اليومية عن كل مرافق الحياة .

غير ان تفاعل الشخصية الانسانية مع الفن اثبت موجوديته يوم راح الشعر المعاصر يعكس التيارات الادبية واحدا بعد الاخر وفي أقل من اربعين سنة تقلب الشعر العربي في أطوار كثيرة استغرقت قرونا عند سوانا ، وتنقل من الكلاسيكية الجديدة الممثلة في شوقي ومعاصريه الى شبه الرومانطيقية الممثلة في ناجي والشابي وطه ومئات من الشعراء الذين نظموا في العقد الرابع والخامس من هذا القرن ، الى الرمزية التي برزت الى الميدان في العقد الماضي ممثلة في سعيد عقل وبشر فارس الى الواقعية الممثلة في الشعراء الشباب من العراقيين وسواهم .

ورافق ذلك دعوات لتحرير الشكل الشعري وتجارب في الشعر الحر والموسيقى الشعرية بدأت في أوائل العقد الرابع وفشل أغلبها الى ان نجحت حركة الشعر الحر في العراق في اواخر العقد الماضي .

ورافق تحرر الشكل الشعري تحرره في المضمون وقامت دعوات صارخة لتخليص التعبير الشعري من اتباعيته وبدأت الشخصية الشعرية العربية تلح عن وعي منها أن تعبر عن حياتها المعاصرة وأن تعبر بما يتلاءم مع عصرها من وسائل .

هذه طفرات سريعة خاطفة ، ولعل سرعتها تفسر لنا شيئا من هذا الرهق ومن هذا الاعياء الذي يبدو على بعض نماذج شعرنا المعاصر ، فكأنه يسابق الزمن ليدرك مكانه وليتعرف على روح عصره وليحاول ان يمثلها وان يترجمها من جديد الى العالم . غير اني مؤمنة بان الشخصية الشعرية العربية قد بدأت تجد نفسها . انها لا ينقصها الموهبة ولا المعرفة

(١) لم يخل ادبنا من بعض التجارب الملحمية خلوا كاملا ـ فهناك مثلا ارجوزة ابن المعتز الطويلة في مآثر العباسيين وهناك في الادب العامي قصة بني هلال الملحمية الخ .....

النظرية بمقاييس الادب الرفيع حتى تصل الى درجات الابداع ، وانما ينقصها تعمقها لنفسها ، وتمرسها على الحياة الفنية ، وفهمها لطبيعة وظيفتها « الشاعرة » ، وقبل كل شيء تطورها العقلي والروحي والاخلاقي الذي يؤهلها للمساهمة في ابداع الجمال والمشاركة ، لا في اغناء التراث العربي وحده ، بل الارث العالمي ايضا .

*

هذا نحن من تراثنا . ان احترام التراث لا يكون بابقاء الادب على أمثولة هذا التراث بل بتركه يعيش معنا ومع ادبنا ويلون تذوقنا ، ويعلمنا ، ويزيد في غنانا ، ويقوي من تعبيريتنا التي يجب ان تحتفظ بعصريتها في الوقت ذاته اذا اردنا ان ننتج ادبا رفيعا . يجب ان يتغلغل التراث ويذوب في العمل الفني المعاصر . أن هذا يتم حين نستطيع ان نستنشق الاصالة العربية وروح التراث في القطعة الفنية دون ان نعثر على مواد خام لهذا التراث فيها .

واحترام التراث يكون ايضا باحيائه ، بالعمل على تدقيق مخطوطاته الفغيرة العدد المكدسة باسطامبول والاسكوريال والمغرب وغيرها ، وعلى أحياء شعراء وادباء قدامى ابدعوا في فنهم ولكنهم ، لسبب او لاخر ، لم يستطيعوا ان يفرضوا أنفسهم على الذين أرخوا التراث أو على الذين احيوا منه ما كان ابرز وأشهر ، الشهرة مزلق هين للانسان .

واحترامنا للتراث يكون بفهمه وباعادة تفسيره ، وبنقده فنيا وبتجديد اعتباراتنا له وبتغيير بعض ترتيباتها .

ويكون احترامنا لشخصيتنا واخلاصنا للفن وهذا اول اخلاص يدين به الفنان الاصيل بالوقفة التي نتخذها من مواطن الضعف في تراثنا ، بتخلصنا من العاطفية الزائدة التي تجعل من تعلقنا بقديمنا شبه مرض ادبي يضعف من ثقتنا بانفسنا ، برفضنا ان تحكمنا نفس القوانين التي قيدته ومنعته من الانطلاق ، بتكمننا من ان نميز ونفاضل ونقرر أيضا تقع عبقرية كعبقرية الجاحظ العظيمة مثلا بين عشرات المصنفين والكتاب الذين حفل بهم عصره والعصور التي تلته .

٢ ـ الاديب الثوري والحضارة العالمية

لست معنية هنا بما يرافق الحضارات من تقدم علمي واقتصادي وصناعي فهذه وحدها لم تكون يوما ما حضارة، وهذه وحدها يمكن الوصول اليها في فترة وجيزة من الزمن اذا توفرت الامكانات المادية والارادة ، كما حصل في روسيا مثلا، كما وان التقدم في هذه المجالات لم يكن خيرا على الانسانية فان لم يكن من نتائجه سوى الاستعمار والقنبلة الذرية لكفى .

وانما ركيزة الحضارة الاولى هي خيال الانسان المبدع وما اعطاه من فن وفكر واخلاق ووعي انساني ودفق روحي . وهذا ما يجعلني أرى الحضارات جميعها عبارة عن طفرات تتنقل بين الامم ، فالامم تتناقل حمل الحضارة امة بعد امة مضيفة اليها من روحيتها شيئا خاصا . ولو راجعنا التاريخ العالمي لوجدنا الحضارة في امة ما تقوم (وبسرعة فائقة احيانا كما حصل للعرب) وتزدهر بكل خصائصها المتميزة واسلوبها المتلون بروحيتها ثم تخمد وتضمحل لتحمل مشعلها امة اخرى . فليس في حمل الحضارة اي احتكار ، ومن المخجل ان يعتقد احد بهذا . وهذا ما يجعلني انظر الى كل حضارات العالم على انها تخصني بالمشاركة الانسانية ، وعلى اني وريثتها بقدر ما استطيع ان اتمثلها واهضمها . وروحية الهند مثلا التي حملتها الى العالم نفسية غاندي العظيمة ، لا تخص الهنود وحدهم بل تخصنا نحن ايضا ، اذا عرفنا كيف نفهمها ونتأثر بها .

ومهما حاولنا ان نبرز الفروق بين حضارة الاخرين وحضارتنا فان الحياة الحديثة ستقرب ما بين هذه الفروق وتزيل عددا منها . ان الحياة الحديثة ستقرب بينها اولا لكثرة اختلاط البشر وسهولة اتصال الشعوب بعضها ببعض ، وثانيا للنزعة الحديثة نحو المشاركة العالمية في الفكر والثقافة والسياسة والعلم ، وثالثا لان الفكر المعاصر يركز على قيمة الانسان ويتخلى عن الدين او يتجاهله ولقد كانت الاديان دائما عنصرا من اهم العناصر التي ميزت الحضارات واقامت الفروق بينها .

ومهما كان رأينا في مستقبل حضاري منسجم في العالم كله يقرب بين الحضارات جميعها ، فاننا لا نستطيع ان نتجاهل هذا الاتجاه في سير تيار الحضارة العالمية ، وعلينا، اذا كنا اذكياء ، ان نفكر على هذا الصعيد . ان التقريب بين الحضارات لن يحرم الامة الواحدة من ميزاتها الاصيلة اذا كانت ذات قيمة انسانية غير ان الامم في المستقبل قد لا تتفرد بحضارة مستقلة بل بتيار خاص ضمن الحضارة

ـ التتمة على الصفحة ٩٩ ـ

دار الثقافة - بيروت
تقديم بالاشتراك مع
مؤسسة فرنكلين - للطباعة والنشر
لبنان في التاريخ
تأليف الدكتور فيليب حتي
ترجمة الدكتور أنيس فريحه مراجعة الدكتور نقولا زيادة
يحتوي هذا الكتاب على تاريخ لبنان المطول منذ العصور القديمة حتى عصرنا هذا
٧٥٠ صفحة من القطع الكبير مزينة بأجمل الرسوم والصور والخرائط . ورق أبيض ممتاز طباعة أنيقة . ثمن ١٠ ليرات لبنانية أو ما يعادلها
يطلب من الناشر دار الثقافة ص.ب ٥٤٣ - بيروت
ومن المكتبات الكبرى في عموم البلاد العربية

اديبنا الثوري والموقف الحضاري

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٤ ـ

العالمية الشاملة .

اما اليوم فان استفاقتنا الثورية على حضارتنا وعلى حضارة العالم بعد ركود طويل تحمل في صلبها معاني وامكانات باهرة قد نتمكن من انتهازها وقد لا نتمكن . ان قولي هذا لا يحمل ضعفا في الايمان او ميلا الى التشاؤم ولكنه يعكس من الناحية الموضوعية العلمية حقيقة الامكانات التي قد نلتقيها خلال السنوات القادمة . فهل سنستطيع مثلا ان ننقذ انفسنا من الروح التجارية المرعبة التي تميز الحضارة الغربية ، من السلبية وفقدان الشخصية في العمل والحياة اليومية وضروب الترفيه ومن الميل الى التشابه المسلكي الذي يحطم الفردية ، ومن الحياة الالية المرتبطة بمنبه الساعة في المنزل والمحطة وقاعة العمل ، اي من كل هذه المظاهر السلبية للحضارات التي تتجه نحو حياة جماعية منضبطة ؟ ام ان حضارتنا المتجددة ستعنى بالانسان الفرد وستضمن لنا « الاستقلال الشخصي » في حياتنا وستفتح المجال للطرافة والتفرد والتميز امام الافراد؟

وان استفاقتنا هذه فوق هذا قد تحمل الكوامن التي تمهد للفنان والخلاق عندنا ان يخلق فنا ذا روحية متدفقة واثقة اكثر من كتاب اوربا وفنانيها الذين يعيشون في عصر تساؤلاتهم الميتافيزيقية المريرة . فمعاناة حربين مدمرتين ، وهيروشيما وافران الغاز والاطفال المصلوبين على وجه اوربا وحرب الابادة في الجزائر ، كل هذه الفظائع التي اختص بها القرن العشرون ، قد برهنت على فشل الحضارة الغربية في منح الانسان الغربي الوهة الارض واستقرار الضمير وليس حزن السويديين وخيبة الاميركيين النفسية وحركة الشباب الغاضب في بريطانيا الا ردود الفعل المحتومة لفشل هذه الحضارة الباهرة التي لم تستطع ، رغم تعبيرها عن اجل معاني الانسانية ، ان تحمي الانسان من تدمير نفسه عندما ضاعفت له مقدرته على انزال الضرر والخراب . غير ان الكاتب والفنان والمثقف العربي ، لا يمكنه التهرب كليا من تساؤلات الغربيين وحيرتهم ازاء فشل حضارتهم في منحهم الاستقرار والدفء الروحي . فكما اسلفنا لم يعد سكان الارض قادرين على الحياة في معسكرات منفصلة لا تترادف فيها التيارات الفكرية والعاطفية ، ولم يعد بمقدورنا أن نعمل ونبني بمعزل عن مخاوف اوربا وارتجافاتها ـ واما الخوف من حرب ذرية فانه لا يقض مضاجع الغرب اكثر مما يقض مضاجعنا .

لكن هذا لا يعني اننا سنشارك الغربيين يأسهم وضجرهم وشكوكهم . ان افكارهم ستعرض نفسها علينا ومن المفروض ان تثير تحدينا وتشعرنا بقوتنا الدافعة، غير ان هذا سيكون رهنا باحوالنا النفسية والاجتماعية ومدى تغلغل الثورة في حياتنا العملية . ذلك ان مجتمعنا ما زال يشكو من نواحي الضعف الخلقي والفوضى في المفاهيم ومن الكثير من البلادات والتفاهات التي كانت عنصرا من عناصر ثورتنا على حياتنا . بل اننا نرى هذا المجتمع لا زال يعنى اكثر ما يعني بالانماط العادية من الناس وبمن له ظهر يسنده ومال يدفعه واصدقاء اقوياء يسندونه . ان مجتمعا يؤثر الوسطية ويغل الحرية الفكرية ليس افضل مجتمع للانتاج الادبي المتفائل والفرح الذي يعبر عن بنائية ثورية مستبشرة. ان حقيقة صراع الفئة المثقفة اليوم يقع في الفارق الشاسع بين المفاهيم التي اعتنقتها وبين الواقع الذي تعيشه بمرارة في اغلب بلدان الوطن العربي الكبير .

ولهذا فاننا لن نستغرب اذا رأينا ان عددا من ادبائنا لا يعكسون فعالية حضارتنا المتجددة وحيويتها واستبشارها وتفاؤلها ـ ولعل الجيل القادم سيكون اكثر تفاعلا مع حضارة اسست ونهضت وآتت اكلها الاول . ان اخلاص الاديب هو لفنه فقط ونحن لا نريد لادبائنا الا ان يعكسوا قناعتهم الوجدانية فيما يكتبون ، وسوف ندافع عن حقهم في هذا ، وسوف ندافع عن حقهم في اتخاذ الموقف الذي يلائمهم ويجد ارتياحا في نفوسهم ما دام يعكس تفاعلهم الحقيقي مع حياتهم .

دار المعارف بلبنان

بناية العسيلي ساحة رياض الصلح ص.ب. ٢٦٧٦

نقدم كتابا قريبا من نوعه في الادب العربي الحديث، يعالج بجرأة علمية نادرة اهم المشكلات التي يواجهها الفرد العربي اليوم

وجها لوجه

يتوجه به الى كل قارىء عربي يتطلع الى توفير حريته الكبرى

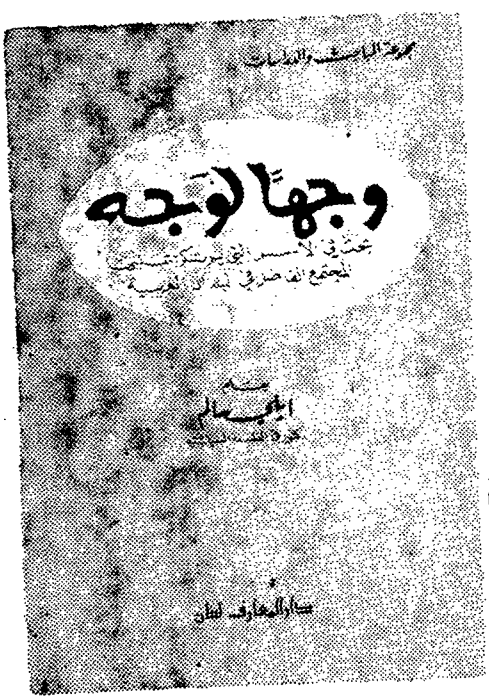

تأليف الدكتور ايلي سالم

الثمن ١٥٠ ق.ل. أو ما يعادلها

يطلب من جميع المكتبات الشهيرة

*

هناك فئتان من حملة الاقلام تجنحان نحو المغالاة العصبية في نظرتهما الى الحضارة الغربية. فالفئة الاولى تشعر بان التخلف مزية من مزايانا وبان التفوق مزية من مزاياهم. وقد قابل هذا الشعور بالضعف امام الغربيين شعور الفئة الاخرى باننا اكثر موهبة واعمق اصالة واروع تفكيرا . ولعل هؤلاء لا يقلون خطرا على حضارتنا المتجددة من اولئك ـ فان ضعف الثقة بالنفس يوازي الغرور قبحا وان الاستخذاء امام الاخرين يوازي التعالي الفارغ فجاجة وتهافتا ـ والاديب الانساني والمفكر الحر هو الذي يستطيع ان يشمل في نظرته مزايا الانسانية جمعاء والذي يستطيع ان يتمثل الحضارة الانسانية التي هي خلاصة تفاعل الحضارات جميعها بما فيها حضارتنا نحن .

اننا لا نستطيع ان نطلق لقب الثورة على اي من الفريقين. الفريق الاول متخاذل مستهين امام الحضارة الغربية ، منكر لتراثنا الغني ، والفريق الثاني متعال على حقيقة الحضارة الغربية ، وهي حقيقة كائنة لها جذور بعيدة ولها تاريخ طويل لم يترعرع الا على كفاح الانسان الغربي مع نظم الحياة وعلى تفاعله الدائم مع تيارات الفكر التي كان يفتقها باستمرار فلاسفة اوربا ومفكروها وعباقرتها .

ان الاديب المؤمن بعروبته يكون اديبا ثائرا بحق يوم يتفهم حقيقة مشكلاتنا وحقيقة اوضاعنا الحضارية والثقافية والفكرية والفنية الى جانب الاوضاع الاخرى . الايمان بالعروبة لا يقع في انكار الغير وفضلهم وتقدمهم . فالعروبة ليست شيئا منفصلا عن الانسانية وتراثها العظيم ومدنيتها وخيراتها ، ولو كان هذا ايمان ثورتنا لكنا جنحنا نحو الانغلاقية الخطرة ـ ولكن ثورتنا لا تؤمن بهذا ، بل انها تؤمن بان العروبة التي هي دمغتنا وثقافتنا ، هي التفتح والتسامي عن العنت والاستعباد الفكري ـ العروبة هي الانطلاق والمحبة ، انها نحن ، المتشوقون الى غد مبني على اسس مركزة راسخة من تراثنا الكبير ومن تراث الانسانية وحضارتها .

ان الثائر الحقيقي لا يفهم الثورة على الشكل الساذج الذي يدعو اليه بعض الكتاب ، اولئك الذين لا يرون في حياتنا وفي تراثنا الا العظمة والروعة ، ففي حياتنا وفي تراثنا الكثير مما يجب ان يرفضه الثائر الحقيقي والقومي المخلص ، ولولا هذا الكثير لما قرنا ، لما تركت جيوشنا الثكنات لتهاجم الاستبداد والرجعية والانانية والتفاهة والسديمية ، اما المتعصبون من الكتاب فهم دخلاء على ثورة جيلنا ، غرباء عن حقيقة كفاحنا ، بعيدون عن مشكلاتنا الجارحة وتساؤلاتنا المرتعشة وتجاربنا المريرة وبحثنا اللاهف عن حقيقتنا .

نعم بعيدون وخطرون . اننا لا نريد ان نبني « السدود بدل الجسور » بيننا وبين العالم . بذلك سوف نختنق ونتعفن ، وبذلك سوف نبقى على هامش الحضارة والتاريخ. ان علينا ان ندخل شراكة العقل الخلاق المبدع في العالم كله.

ولهذا فان كل مفكر قومي ثائر من المؤمنين باصالة هذا الشعب العربي وبعد امكاناته لمدعو بان يشارك في بناء الجسور المتينة بيننا نحن عرب اليوم وبين تراثنا الكبير ، وبيننا نحن عرب اليوم وبين حضارة العالم ، وان يصر على ان نجمع التراث العربي الى الثقافة العالمية ، ان نمزج بين عطائنا والعطاء العالمي ، ان يرجع الادب الى جذوره وان يتطلع الى ما حققته الانسانية جمعاء في الوقت ذاته ..

٢ ـ ناقوس الخطر

واذا جاز لنا ان نتكهن فانه يخيل الي انه ما دامت الجذور الفاسدة لم تستأصل وما دام الفكر مقيدا فان ادبنا الثوري اما ان يستكين واما ان يمعن في ثورة سلبية لن تعود علينا بالخير ، حتى ان الادباء الشباب قد ينقلبون على انفسهم ، وتراثهم ، وعلى رواسب الدين والتقاليد والعادات منددين بالماضي ومستهينين بمآثر الحاضر . وهنا يجثم الخطر الاكبر من التعصب ومن استمرار حالة الوسطية في حياتنا الثائرة الروح ، حياتنا المفتقرة الى التوازن المعافى بين المعرفة والامال من جهة وبين الواقع المؤقت من جهة اخرى . اننا لا نريد شبابا كافرا بمعطيات الماضي، متجاهلا كنوزه واندفاعاته وعطاياه ، ولا شبابا كافرا بمعطيات الحاضر متجاهلا انتصاراته وامكاناته الكثيرة ، ولكي لا يتورط جيلنا في هذا الكفر فان علينا ، نحن حملة الاقلام ، ان نصر على ثورتنا ان تكتسح جذور الرجعية والسديمية والتعصب والبلادة والتفاهة والظلم وان تحاذر من التعرض لحرية الفكر والقلم ، لانها حرية مقدسة ، والتعرض لها يخنق القدرة على الخلق والابداع .

نحن لا يمكننا ان نضحي بالمثقف العربي وبالفرد الموهوب في سبيل اي هدف بعيد او قريب . ان النكسة النفسية التي تصيب المثقف عندنا تصيب الامة العربية في جوهرها الاول . اننا لا يمكننا ان نستغني عن مثقفينا وموهوبينا لانهم هم ملح ارضنا وخميرة عطاء اليوم والغد ، وهم استمرار تراثنا واستفاقة حضارتنا ، وان عليهم تقع مسؤولية احياء التراث العربي وارجاعنا الى جذورنا الثقافية ، وعليهم تقع مسؤولية وصلنا بالثقافة العالمية وتنبيه نظر العالم الى امكاناتنا وفعاليتنا . انهم الجسر بين تراثنا والتراث العالمي . اننا اذا خنقنا امكاناتهم خنقنا تقدمنا ، وبدون جهودهم المنطلقة لا يمكن لثقافتنا ان تنتعش ولحياتنا ان تتجدد . وانه للغو ان نقول بفضل اسبقية التحرر المادي على التحرر الفكري والتقدم الثقافي والروحي ، فالاثنان يسيران جنبا الى جنب ، ولا يمكن للشخصية الحضارية ان تنطلق عن طريق واحد فقط.

فاذا ارادت ثورتنا ان تحقق لنا حضارتنا الموعودة ، فان عليها ان تحرر الكلمة من كل قيد يعوقها عن الانطلاق ، كي يستطيع الاديب الموهوب ان يعبر عن رايه دون تردد ، فالانطلاق الفكري وحده الذي يفجر طاقات الابداع والابتكار في خيال الانسان .

سلمى الخضراء الجيوسي